

الفضاء الثقافي والموروث الشفوي الشعبي

– مقارنة أنثروبولوجية –

الأستاذة: بوديسة فاطمة الزهراء

جامعة المسيلة – الجزائر

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى استكشاف طبيعة العلاقة الموجودة بين الفضاء وبين الموروث الشفوي الشعبي وكيفية تحول الفضاء العام إلى فضاء ثقافي، تتحقق فيه الوساطة الثقافية بمجرد اقترانه بأحد أشكال التعبير الشعبي المعروفة من أمثال وألغاز وأشعار وقصص وأغان شعبية، إضافة إلى مجموع العادات والمعتقدات والممارسات الشعبية. والتي تعمل بطريقة أو بأخرى على إصباغ صفة الخصوصية الثقافية والهوياتية على الجماعات الشعبية.

الكلمات المفتاحية: الفضاء، الوساطة الثقافية، الموروث الشعبي، أشكال التعبير الشعبي، الأنثروبولوجيا

Title: Cultural space and folkloric oral heritage – an anthropological approach

Summary:

This article deals with the nature of the existing relationship between cultural space and popular oral heritage and how this space is transformed from a general space to a cultural space where cultural mediation has been associated with one form of expression Popular popular puzzles, poems, popular stories and songs, as well as all the customs, beliefs and popular practices. Which function in one way or another to put the aspect of cultural specificity on the popular mass.

Keywords: space, cultural mediation, popular inheritance, forms of popular expression, anthropology

توطئة:

إنّ دراسة التراث الشفوي بفروعه المختلفة يعدّ إثراء للبحث الاجتماعي، واستكناها لخصائص الهوية الثقافية للمجتمعات بما يتصف به من عمق وثراء. ولهذا لا يمكن دراسة المنظومات المعرفية عامة وأشكال التعبير الشفوي خاصة مبتورة عن سياقها الثقافي والاجتماعي.

تهدف هذه المداخلة إلى تحديد طبيعة العلاقة بين أنماط البنى الاجتماعية وأشكال التعبير الشعبية، وذلك من خلال النظر إلى النص الشفوي الشعبي في بيئته الحيوية، والتي تتحول - في لحظات معينة - من فضاءات عامة إلى أخرى ثقافية مرنة تتحقق فيها الوساطة الثقافية بكل تفاصيلها؛ حيث يتم من خلالها تبادل التجارب الجمالية وأشكال الوعي والإبداع، فضلا عن إنتاج وإعادة إنتاج الثقافة العامة بكل مكوناتها وأشكالها الشفوية، كالأمثال والألغاز والأشعار والسير والحكايات، إذ تساهم هذه الأشكال إلى حد كبير في عملية التنشئة الاجتماعية والثقافية، ومن هنا تعكس قيما ومعتقدات وقوانين السلوك ونظم الجماعة وهويتها.

انطلاقا من هذه المقدمات تطرح التساؤلات الآتية:

ما معنى الفضاء الثقافي؟ وفيما يتمثل؟ وماهي الأشكال التعبيرية المتعلقة به؟ وما طبيعة الآليات العميقة التي تتحكم في احتلال الفضاء واستغلاله من أجل تحقيق وساطة ثقافية ناجعة؟

1- الفضاء الثقافي

1-1 تعريف الفضاء

أ/ لغة:

الفضاء كلمة متجذرة في اللغة العربية، بدليل ورودها في معظم المعاجم اللغوية فقد أوردها ابن منظور في لسان العرب كلمة " فضاء" ضمن مادة (فضا) فيقول: والفضاء هو المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا يفضو فضوا فهو فاضٍ... وقد فضا المكان وأفضى إذا اتسع، وأفضى فلان إلى فلان أي وصل إليه، وأصله أنه في فرجته وفضائه وحيزه... والفضاء: الخالي الواسع من الأرض، والفضاء الساحة وما اتسع في الأرض، يقال أفضيت إذا خرجت إلى الفضاء، والفضاء ما استوى من الأرض واتسع، والصحراء، فضاء"¹.

ب/ اصطلاحا :

يذهب حسن نجمي في كتابه شعرية الفضاء إلى أنّ " الفضاء هو العالم الذي تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال، والمرء بقدر ما يتفاعل مع الزمن يتفاعل مع الفضاء، بل يمكن القول إن تاريخ الإنسان هو تاريخ تفاعله مع الفضاء وبالتالي فإن الفضاء يلعب دورا حيويا على مستوى الفهم والتفسير والقراءة النقدية، وهو لكي يلعب هذا الدور يأخذ وضعاً اعتبارياً نظرياً، فمن جهة يتعين تكوينه وتحديد كنهه كمفهوم نقدي (سوسيولوجي، بنيوي، سيكولوجي، إدراكي...) ثم توظيفه منهجياً وإجرائياً بعد ذلك."² يعكس هذا القول أهمية وفاعلية الفضاء في حياة الإنسان على جميع الأصعدة والمستويات، حيث يرتبط بالتاريخ والاكتشاف ومحاولات التفسير والتأويل.

2-1 تعريف الثقافة

لم تشر المعاجم العربية القديمة إلى مصطلح "الثقافة" ولم تحددها تحديدا واضحا، فابن منظور يقول في مادة (ث ق ف) « يقال ثقفت الشيء وهو سرعة التعلم»³ فالثقافة في المعاجم العربية القديمة تعني الذكاء والفطنة والحدق؛ أي سرعة البديهة. أما في المعاجم الحديثة فهذه الكلمة لم تعد محصورة في الذكاء والفطنة، وإنما تجاوزت هذا المدلول إلى مدلول أوسع وأرحب، إذ تضمنت ميادين عدة.

يشير مجدي وهبة إلى أربعة معاني للثقافة نلخصها في النقاط الآتية:⁴

- الثقافة هي رياض الملكات البشرية والتي تتجسد في مختلف الإنجاز.

- إنها ترقية للعقل والأخلاق وتنمية الذوق السليم في مختلف الفنون والآداب الجميلة.

- تعد إحدى مراحل التقدم في حضارة ما.

- إنها من السمات المميزة لإحدى مراحل التقدم في حضارة من الحضارات

كما يقدم سليم جيهان تعريفات للثقافة ابتداء من المعنى التقليدي وصولاً إلى المعنى المعاصر حيث يقول: "إنّ الثقافة بالمعنى التقليدي تعني النتاج الأدبي والفكري والفني، أما بالمعنى الأنثروبولوجي الموسع فتعني أنماط السلوك المادية والمعنوية السائدة في مجتمع من المجتمعات والتي تميزه عن سواه.

اتسع معنى مفهوم الثقافة اليوم، إذ أصبحت تعني جملة النشاطات والمشروعات والقيم المشتركة التي تكون أساس الرغبة في الحياة المشتركة لدى أمة من الأمم، والتي ينبثق منها تراث مشترك من الصلوات المادية والروحية يغتني عبر الزمان ويغدو في الذاكرة الفردية والجماعية إرثاً ثقافياً بالمعنى الواسع لهذه الكلمة هو الذي تبنى على أساسه مشاعر الانتماء والتضامن والمصير الواحد"⁵

ويتوافق المفهوم الأخير مع طبيعة دراستنا ومع الكثير من التعريفات الأخرى كتعريف الأنثروبولوجي أ. تايلور E Tylor بقوله أنّ: «الثقافة هي ذلك الكل المركب المعقد الذي يشمل المعلومات، والمعتقدات والفن، والأخلاق والأعراف والتقاليد والعادات، وجميع القدرات الأخرى التي يستطيع الإنسان أن يكتسبها بوصفه عضواً في مجتمع»⁶

إذن حسب وجهة النظر الأنثروبولوجية فالثقافة هي جملة الممارسات والعادات والنظم التي تكون موروث جماعة معينة. أو هي أنماط من السلوك والتجارب والقيم والتفكير والمعاملات التي اصططلحت عليها الجماعة في حياتها، والتي تتناقلها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي، وعن طريق الاتصال اللغوي والخبرة بشؤون الحياة والممارسة لها"⁷.

انطلاقاً مما تقدم يمكن تعريف الفضاء الثقافي على أنه "الفضاء الذي تتم فيه البنية الرمزية لأشكال الانتماء إنّه نوع من التخصيص للفضاء العمومي...إنّه تسجيل ضمن البعد اللغوي والرمزي".⁸ وهذا ما تؤكدته الناقدة البلغارية **جوليا كريستيفا** في دراساتها السردية، حيث ربطت الفضاء الجغرافي بدلالته الحضارية المرتبطة بعصر من العصور وهو ما أطلقت عليه اسم "إيديولوجيم العصر" وهو "الطابع الثقافي العام الغالب في عصر من العصور إذ يدرس الفضاء الروائي دائماً في تناصيته، أي في علاقته مع النصوص المتعددة لعصر ما أو حقبة تاريخية محددة"⁹ بحسب

هذا التعريف فإن إيديولوجيم العصر هو نظرة خاصة للفضاء، ليس كونه مكاناً للعيش وحسب "وإنّما هو أيضاً مكان ثقافي؛ أي أنّ الإنسان يحوّل معطيات العالم المحسوس وينظمها لا من خلال توظيفها المادي المعيشي فقط، بل من خلال إدخالها في نظام اللغة، التي تنوب عن عالم الواقع وتحل محله، وهذه العملية ليست عملية سلبية أو بريئة، ولكنها مشبعة بالقيمة¹⁰. كأن تعكس اللغة قيماً أخلاقية وعقائدية ترتبط بقدرسية الفضاء وحرمة، أو قيم سلبية مغلوبة تتصل بالفضاء المدنس.

كما أمكن من خلال الفضاء تمييز عصر عن آخر لأنّه "يسجل مختلف الثقافات والعادات والمعتقدات وكل ما يتصل بالإنسان منذ غابر الأزمان، لذلك يكتسب قيمته الفنية والموضوعية بوصفه وعاء للزمان".¹¹ إضافة إلى أنّه يشكل مسرح الأحداث التي تصنعها الذاكرة التاريخية برموزها المتنوعة، مادامت صيرورة النص جزء من صيرورة الواقع، والمكان هو بشكل أو بآخر يعبر عن مقومات خاصة مرتبطة بالهوية والكيونة والوجود¹²

والجدير بالذكر أنّ مفهوم الفضاء الثقافي لا يقتصر على الفضاءات الحضارية (مسرح، دار أوبرا، سينما..)، بل هو أشمل من هذا بكثير فهو "كل فضاء تتحقق فيه وساطة ثقافية؛ أي يتم فيه تبادل التجارب الجمالية، وتداول أشكال التعبير الشعبي التي تسمح بجعل عملية التنشئة الاجتماعية والثقافية ممكنة وفعالة في المجتمعات الشفوية"¹³، بمعنى أنّ الفضاءات الثقافية ليست أماكن معروفة متفردة بتداول المادة الثقافية فقط، بل هي فضاءات عامة تتحول إلى فضاءات ثقافية لحظة تحقق الوساطة الثقافية. لكن هذا التداخل لا ينفي تميزها عن الفضاءات العامة فهي تختلف عنها في الوظيفة العامة التي تؤديها؛ أي أنّ ما يحدث في

الفضاء هو الذي يحدد طبيعته، فالتمثيل أو ما يسمى بالأداء هو الذي يحول الفضاء إلى منبر ثقافي، " تماما مثلما تحول المداولات المؤسساتية الفضاء إلى فضاء سياسي، أو مثل الشعائر التي تحوله إلى فضاء ديني "14.

إنّ هذه الفضاءات من وجهة نظر أنثروبولوجية هي فضاءات مؤسسة للثقافة بمعنى أنّها ليست مجرد محطات عبور تماما مثل أنّ المتداولين لتلك الأشكال التعبيرية ليسوا مجرد رواة لهم ذاكرة خصبة بل هم مبدعون بأنهم معنى الكلمة.

2- مفهوم الموروث الشفوي الشعبي

2-1 تعريف الموروث: اختلف الباحثون والدارسون في تعريف الموروث وذلك لشموليته وشيوعه، ممّا نتج عنه عدّة تعريفات على حسب توجهات ومناهج الدارسين. وهذا محمد الجوهري يعرفه بأنّه " المخزون الثقافي المتوارث عبر الأجيال، وأنّه يمثل الأرضية المؤثرة في تصورات الناس وسلوكهم ومن ثمّ يكون حاملا للقيم وتجارب الشعوب "15

إذن الموروث من وجهة نظر الجوهري هو التركة الثقافية التي يتوارثها الخلف عن السلف، ذات الوظيفة التوجيهية التأثيرية باعتبارها تقوّم السلوك الإنساني، وتلخص التجارب، وتحدد قيم الجماعة الشعبية. ويحدّد سعيد يقطين مجال التراث ويربطه بـ " كل ما خلفه لنا العرب والمسلمون من جهة، ويتحدد زمنيا بكل ما خلفوه لنا قبل النهضة من جهة ثانية "16 ويكون التراث بذلك كل ما انتجه لنا أسلافنا من فكر وعمل ماديا كان أو معنويا.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ مصطلح الموروث أشمل من مصطلح التراث؛ لأنّه " يشتمل على كل ما أنجزه الأسلاف وكل ما فكروا به، منه ما بقي وما زال يمتلك مفاعيل مؤثرة فينا، ومنه ما أدى دورا في مرحلة من المراحل ثمّ تمّ تجاوزه بعد ذلك "17 وبعبارة أخرى يمكن القول بأنّ الموروث يساوي التراث زائد المتحولات والمتغيرات الناتجة عن تغير الوقائع التاريخية.

2-2 تعريف الشعبي : يعرفه هابرلاندت بأنّه الجوهر الكامن في كل فرد من أفراد الشعب18؛ أي أنّه " صفة مشتقة من مصطلح الشعب الذي ألهمه المادة والروح من حيث الطرح اللغوي الشكلي والدلالي والرمزي. فالشعبي صفة لكل ما يصدر عن الشعب قولاً، ممارسة، سلوكاً وتصوراً للحياة وللأشياء.

بعد تحديد مفهوم الموروث والشعبي يتيسر ضبط مفهوم الموروث الشفوي الشعبي وهو مجموع الأشكال والعناصر الثقافية والعطاءات القولية والفكرية والمجتمعية النابعة من الوعي واللاشعور الجمعي، إذ تعبر عن الخلجات النفسية والتي "وصلت إلينا من الماضي البعيد والقريب"،¹⁹ والسائدة في مجتمع ما والمتواجدة في أشكال مختلفة من الحياة اليومية، "في تصرفاتنا وتعابيرنا وطرائق تفكيرنا ومهما حاولنا القطيعة مع الموروث الشعبي الشفوي أو إعلان موته نظريا أو شعوريا، تظل خطاطاته وأنساقه وأنماطه العليا مرشحة في الوجدان ومتمركزة في المخيلة"²⁰ وذلك نتيجة ترسخه في قناعات وسلوكيات الأفراد ومساهمته في تشكيل منظومة قيم الجماعة الشعبية. وهذا ما يتمثل في أشكال التعبير الشعبي ومختلف العادات والمعتقدات والممارسات الشعبية المتوارثة جيلا عن جيل، والتي "تحمل معها من التواصل الحضاري عصابات فكر أجيال متعاقبة"²¹

بالنسبة لأشكال التعبير الشعبي فهي متنوعة غنية منها الأساطير والحكايات الشعبية بكل أنواعها الخرافية والواقعية والسير والمغازي والملاحم، فضلا على الألغاز والأشعار والأمثال والنكت الشعبية. والجدير بالذكر أنّ هذه الأشكال التعبيرية رغم اشتراكها في صفة الشعبية إلا أنّها تختلف عن بعضها البعض اختلافا جوهريا؛ "لأنّ كل منها تنبع من مجال محدد من مجالات الاهتمام الروحي الشعبي، وهذا المجال هو الذي يحدد شكل كل نوع ووسيلة التعبير فيه"²² فالأمثال الشعبية تنتج عن التجارب والخبرات الواقعية وتعمل على رصد السلوك الأفراد أما القصص الشعبية بشكل عام فهي تعبر عن عالم الخيال الذي يصب إليه الإنسان ويحلم به، حيث ينتصر الخير على الشر والعدل على الظلم والحب عن البغضاء. بينما يعبر الشعر الشعبي عن آلام وآمال الجماعة الشعبية ويرتبط بوجدانها ويمجد تاريخها ورجالها.

3- المقاربة الأنثروبولوجية:

الأنثروبولوجيا هي علم الإنسان؛ أي الدراسة العلمية للإنسان، في الماضي والحاضر الذي يرسم ويبنى على المعرفة من العلوم الاجتماعية، وعلوم الحياة، والعلوم الإنسانية. وقد نُحتت الكلمة من كلمتين يونانيتين هم anthropos ومعناها "الإنسان" و logos ومعناها "علم". وعليه فإنّ المعنى اللفظي لاصطلاح الأنثروبولوجيا (anthropology) هو علم الإنسان²³.

إذن فالمقاربة الأنثروبولوجية تراعي السياقات الثقافية والاجتماعية التي أنتج ضمنها التراث الشعبي، أي أنّها تنظر إلى النص الشعبي الشفوي من زاوية الناس الذين أبدعوه، أي في محيطه الحيوي.

4-آليات اشتغال الفضاء وشروط تحقق الوساطة الثقافية

لفهم الآليات العميقة التي تتحكم في اشتغال الفضاءات واستغلالها من أجل تحقيق وساطة ثقافية ناجعة وجب النظر إليها "على أنّها فضاءات أولية للروح الجماعية أو الجمعية هذه الأماكن المؤسسة للثقافة تتجلى فيها الرابطة الاجتماعية في كل عمقها ويتم عرضها في كل دلالتها وكثافتها"²⁴. نتساءل هنا عن الآليات التي تنبني وفقها هاته الفضاءات الأولية؟ وعن طبيعة الوساطة الثقافية المتحققة؟ وعن الفاعلين والمتحكمين فيها؟

الرؤية الأسطورية الطقسية للعالم: لا يتم اختيار المكان هنا على أساس مادي معيشي فقط، بل تتدخل في الاختيار رؤية طقسية ترتبط بالمقدس والمعتقد، حيث تقسم الجماعة البشرية المكان إلى مأهول عامر، وآخر غير مأهول خال. ويتم اختيار المكان الأول لارتباطه بقدسية العمارة والتأسيس الأولي الذي يكون في الغالب على يد ولي صالح بسط بركته وحمايته على هذا المكان، فيقال بالتعبير العامي "الناس تحت برنوس سيدي ثامر" أو "تحت جناح أبي قسمية". بينما يتم تجنب الأماكن الخالية التي يعتقد أنّها مواطن للجن والعفاريت ويتم وصفهم "بناس بسم الله"

4-1 مبدأ التمييز أو التوزيع: ونقصد به القوى الفاعلة في الفضاءات الثقافية والتي لها نفوذ يمكنها من تحديد الوساطة الثقافية وأشكال التعبير الشعبية المتداولة في الفضاءات الثقافية وفهم هذا المبدأ أكثر نورد قول بورديو: "يمكن أن تتمثل العالم الاجتماعي على شكل فضاء متعدد الأبعاد، يتأسس على قاعدة مبادئ التمييز أو التوزيع التي تكفلها مجمل الملكيات الفاعلة في هذا العالم الاجتماعي، أي ملكيات قادرة على أن تمنح لأصحابها القوة والسلطة في هذا العالم. ويتم التعرف على الفاعلين ومجموعاتهم انطلاقاً من وضعياتهم النسبية في هذا الفضاء وكل واحد منهم يتخندق في وضعية أو فئة من الوضعيات القريبة - أي في جهة واحدة من الفضاء - ولا يمكن احتلال جهتين متعارضتين في هذا الفضاء إلا بشكل تجريدي ونظراً لكون الخصائص

المأخوذة بعين الاعتبار هنا لبناء هذا الفضاء هي خصائص فاعلة يمكن أن نصف هذا الفضاء بأنه حقل قوي؛ أي كمجموعة علاقات قوة موضوعية تفرض نفسها على كل من يدخلها بغض النظر عن مقاصد الأعضاء ونواياهم أو العلاقات التفاعلية بينهم.²⁵ حسب هذا القول فإنّ الفضاء الاجتماعي العام ينقسم إلى عدّة فضاءات ثقافية بحسب تموضع القوى الفاعلة الثقافية، التي تعمل على إنتاج وإعادة إنتاج الأشكال الثقافية والجمالية وذلك وفق " سلسلة من التعارضات تسمح بتنظيم الأمكنة المأهولة وفق رؤية يتمازج فيها الأسطوري والطقسي والسياسيولوجي، إنّها التعارضات المؤسسة: الداخل/ الخارج، المفتوح/ المغلق، المركزي/ الهامشي، النسوي/ الرجالي." ²⁶ ولفهم هذا التمثيل الثنائي نورد أقسام الفضاء بحسب القوى الفاعلة والقوانين المتحركة في أنواع الأشكال التعبيرية المتداولة وهي²⁷:

- **الفضاء المركزي:** وهو فضاء منظم تتحكم فيه عقلانية خاصة تستند إلى قانون مواضعات شبه مقدس، وإلى قيم جماعية تتحدد الخطاب فهي بمثابة الرقيب الأعلى الذي يسهر على تكوين معارف الجماعة وفنونها وقيمها. والجدير بالذكر أنّ هذه الفضاءات تخضع للأدلوحة الذكورية الأبوية فهي رجالية بحتة (باستثناء البيت وهو فضاء خاص يمكن أن يكون مع النمط المركزي حيناً ومع النمط الهامشي حيناً آخر وهذا ما سنوضحه لاحقاً) لأنّها تقصي المرأة ولا تقبل بخطاب الذات الفردية، لذلك فهي منابر تنتج معرفة ذكورية بالدرجة الأولى ومعرفة جماعية في المقام الثاني.

● الفضاء الهامشي النسوي

سمحت البنية الكلية بوجود فضاء هامشي مغلق خاص بالعنصر النسائي، من أجل امتصاص الكبت، وذلك بفضل آلية البحث عن التوازن؛ لأن الجماعة لو أصرت على مراقبة كل الفضاءات ومركزيتها ستخلق ضغطاً هائلاً قد يفجر البنية كلها. وهذا الفضاء ليس تابع مباشرة للسلطة الرمزية للجماعة، فالجماعة ترفع يدها مؤقتاً عن هذه الفضاءات لتحسس الهامش بما يشبه الحميمية.

● الفضاء الهامشي الرجالي

هو فضاء هامشي مفتوح؛ لأنّ الفاعلين الذين يشغلونه هم بدورهم هامش الذاكرة الجماعية وصوتها الداخلي المشاغب، الذي يتشكل من الرعاة والشاذين وكل المغضوب عليهم، لسبب أو لآخر من شعراء جوالين وقطاع طرق والعطارين، بالإضافة طبعاً إلى العامة من متذوقي الشعر وهواة فنون القول وهؤلاء طبعاً بحكم وضعهم الاجتماعي الهامشي ولانعدام منتدى قار وثابت فإنّهم

يخلقون لذاتهم ما تخلت البنية الأم عن تبنيه ومراقبته من فضاءات هذه الفضاءات رجالية، ولكنها على عكس الفضاء المركزي المغلق، تمثل منبرا لكل مالا يقال في الفضاء المركزي على السنة أهل الحكمة أو على السنة شعراء السلطة الرمزية.

3-4 الزمكانية: وهي معطى في صلب بنية الفضاء في كل المجتمعات البشرية، وتعني ارتباط الزمان بالمكان؛ أي "أنّ التموّج في المكان حتى وإن كان يخضع لبنية اسطورية طقسية في رؤية العالم، فإنّ المكان يتغير وظيفيا وبنويا بتغير المجال الزمني".²⁸ بعد أن أوضحنا الآليات التي تتحكم في بنية، يجدر بنا الآن أن نتوقف بنوع من التفصيل عند كل الفضاءات الثقافية التي يتيحها التنظيم الاجتماعي.

5-أنواع الفضاءات الثقافية والأشكال الشفوية المتعلقة بها

تتحول ربوع القرى التقليدية في لحظات معينة إلى فضاءات ثقافية مرنة وحيوية تتحقق فيها الوساطة الثقافية بكل تفاصيلها؛ حيث يتم من خلالها تبادل التجارب الجمالية وأشكال الوعي والإبداع منها أشكال التعبير الشعبية، فضلا عن إنتاج الثقافة العامة وأشكال التعبير الشفوية بشكل خاص، كالأمثال والألغاز والأشعار والسير والحكايات؛ إذ تساهم هذه الأشكال إلى حدّ كبير في عملية التنشئة الاجتماعية والثقافية، حيث تنعكس قيم ومعتقدات وقوانين السلوك ونظم الجماعة في هذه الأشكال التعبيرية، إضافة إلى أنّ هذه الأشكال تتموقع في صلب عمل الذاكرة الجماعية.²⁹ ومن بين الفضاءات الثقافية وأشكال التعبير الشعبية نذكر:

5-1 مجلس القرية:

وفيه يجتمع كبار العروش وأعيان المنطقة، وكل الشبان والأطفال لمناقشة مشاكل وأوضاع ومشايخ القرية، فعلى رأس الهرم نجد الحكماء ثم الشعراء: شعر الحكمة والمدائح والمواعظ ثم يأتي أهل الحل والعقد ممن له مسؤولية في المجلس، ويسمح بتداول المعارف شديدة الارتباط بالموروث الشفوي: الحكمة، المثل، المآثر الجماعية والفردية التاريخ كما تفهمه الذاكرة الشعبية الحكاية، الأغنية، الشعر... بحيث تتميز موضوعات هذه الأشكال بالتوازن والانسجام مما يقضي كل الأشعار المناوئة للمركز ويستبعد شعر الخمریات والغزليات الجريئة والوجدانيات الحميمة.³⁰ بالتالي فالشكل الشعري المسموح به هو الشكل المنسجم مع هذا المقام كالمطولات الدينية وشعر الحكمة والحماسة؛ أي كل ما يطمئن الجماعة على سلامة رؤيتها إلى العالم والقيم.

ويتحول هذا الفضاء من عمومي إلى ثقافي لحظة تواجد القوال أو الحكواتي* الذي يُعلق قلوب وأسماع الحاضرين بسرده الشيق لسيرة بني هلال، وما فعله أبطالها "جازية" و"ذياب" و"عيشة الكحيلة". إذ ما تزال الرواية الشفوية الملفوظة تحظى بحيوية متزايدة في القرى، فقد احتفظت بآثار حضارة الأجداد البدوية، "فأساطير منطقة السهب التي يعود تاريخها إلى العصور الوسطى، والتي تكونت انطلاقاً من خصال أفراد عرفوا في التاريخ أشباه غانم وذياب وجازية، والتي توارثتها الأجيال عن رُحل من أصل هلال، بقيت إلى أن وصلتنا نحن اليوم، وهكذا ما انفك الغزو الهلالي يغذي على مر القرون الأساطير القديمة سواء المروية تحت الخيمة أو في دار القصر، فمآثر ومفاخر البدو القادمين من مصر في القرن الحادي عشر كانت تروي في الغالب على شكل حكايات منظومة بالقافية تنمق محتوى الرواية لتصير شعراً عذبا"³¹. وقد يحلق الحكواتي أو الراوي بالمستمعين بعيداً عن سيرة بني هلال، ليُحط في أرض المغازي وعادة ما يركز على بطولات سيدنا علي - كرم الله وجهه - رفقة البراق وذو الفقار وهما فرسه وسيفه. وأحياناً يطير الراوي في أجواء الحب والحرمان مع مغامرات لونجة ومحمد الصغير وصندوق الذهب، ليعرج بعد ذلك على أرض الخوارق والعجائبية وبلاد الأهوال والأغوال وكل هذا حسب رغبة جمهور المستمعين.

5-2 عين الماء:

يؤمنها الرجل والنساء ولكنّها تصبح فضاء نسويًا في أوقات معينة من النهار وفيها يمنع على الرجال ارتيادها ويعاقب كل من يخالف ذلك. إذن تتحول عين الماء بفضل هذا التقنين إلى فضاء حميمي نسبي يقوم مقام الحمامات في المدن فتجد الأنوثة ذاتها بعيداً عن أعين الرجال فينبجس الشّعر ليعبر عن هواجس متعلقة بالحب والجنس والغبن الاجتماعي للمرأة على شكل مناجاة مفعمة بالحرمان . وهذا ما يؤكد أنّ الفضاء الاجتماعي المتاح ووظيفته هو الذي يحدد طبيعة الأشكال الشعرية³².

5-3 السوق الشعبية:

يتحول السوق من فضاء لتبادل سلعي إلى فضاء لتبادل ثقافي ولهجي، حيث يتم تداول الثقافة الشعبية الشفوية، وبالأخصّ الشعر الشفوي، والحكاية على ألسنة المداحين والشعراء الجوالين، إذ يعتبر السوق كما في الجاهلية عكاظ حلقة ثقافية يرتادها كبار الشعراء طلباً للشهرة ونيلاً للاعتراف، بحيث يتخذون في الغالب رحبة لهم بين الناس فتتشكل حولهم حلقات من الفضوليين وعشاق الكلمة ومحبي الحكايات وهكذا تختلط المغازي بالشعر والحكاية³³.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ هذه الحلقات لعبت دوراً مهماً أثناء الفترة الاستعمارية، وذلك بنشر روح المقاومة وزيادة الحس بالقضايا الوطنية من خلال الأشعار وقصص الأمجاد والبطولة. والجدير بالذكر أيضاً أنّ هذا السوق يحضره أناس أجنب عن القرية أمثال " القبائل " أو " الشاوية "؛ أي أناس مختلفون عن أهل سكان القرية في العادات واللهجات. وهنا يدور حوار شيق يصطبغ بالاستغراب والضحك؛ نتيجة لتعجب كل طرف من مصطلحات وتسميات وحتى طريقة نطق الطرف الآخر.

4-5 البيت (الخيمة): "يشكل الفضاء البدئي لكل أنماط الوساطة الثقافية ففيه يتلقى الفرد – خاصة في الثقافات الشفوية – حكاياته الأولى، ويستمتع إلى أشعار الهدهدات والترقيصات ويحضر الطقوس المنزلية، هذا فضلاً عن تلقيه اللغة وما يتسرب عبرها من قيم و سلوكات " 34

ويتحول من فضاء معيشي إلى فضاء ثقافي مركزي لحظة تواجد الرجال، حيث تقدم الأدلوجة الأبوية التي تتجلى في البنية العميقة لكل الأشكال التعبيرية الشفوية التي يحتضنها البيت :

– الحكايات العجيبة والشعبية الموجهة لتربية الأطفال كحكاية بقرة اليتامى "، ولونجة بنت السلطان " مرود الذهب ".....
 – الأمثال الشعبية التي تكرر حكمة الأسلاف وتعطي للخطاب تداوليته وفعاليته كوسيلة حجاجية. كقولنا " اللي ما يسمع لكبيرو الهم هو تديرو"، "المهر لا تشلّو والذكر لا دلّو"، "عودتي ما تهرب وأنا ما نمناها".....

– الألغاز الشعبية التي تأتي هنا كوسيلة عقلية لشحن العمل الذهني لَمّا يجتمع أفراد الأسرة بمعية الجدة، التي تكرر طقوساً معينة لتلقي على مسامع الحضور الألغاز الشعبية أو الأحاجي.

– الهدهدات وأغاني مداعبة الأطفال وتنويمهم وكلها خطاب أمومي يكرر فكرة الرعاية الأسرية. نذكر على سبيل المثال الهدهدة القائلة:

نّني نّني يجيك النوم...أمك قمرّة أيبك نجوم

نّني نّني يجيك النعاس...أمك فضة أيبك نحاس

ومن الملفت للانتباه أنّ البيت في لحظة غياب العنصر الذكوري – نهارة على وجه الخصوص – يتحول في حضرة النساء إلى فضاء هامشي مغلق، حيث تتشكل حلقات اللهو كحلقة الرقص والغناء ويتسع الفضاء للمطارحات والبوح والمشاكسة "فتتعالى

الأشعار الغزلية والقصائد الوجدانية، كما يمكن للنساء أن يعقدن حلقات ممسحة على سبيل التسلية، أمّا إذا كانت المرأة وحيدة ومشغولة فإنّ العمل اليدوي المرهق سيكون فرصة للمناجاة والبكاء على السعد والحظ وهي كلها لحظات لترديد أنماط راسخة من الشعر، كما أنّها فرصة للارتجال والإبداع لمن لهم القدرة على ذلك³⁵.

لكن هذا الفضاء الهامشي النسوي يتطلب بيتا بسقف وأبواب موصدة، لا خيمة وإن كان أهل القرية قديما يفضلون الخيمة ويمكن تفسير تعلقهم بها حسب رؤيتهم لها ولدلالاتها ومعانيها، فهي دليل الكرم والضيافة ترتبط بلذة الأفراح والأعراس وعبق الشاي وتلقائية الحكيم، كما تختزل زمن الغناء والشعر الشعبي فهذا الشاعر الشعبي عطوي عبد القادر المعروف بـ"ابن شراب الواد" يهيم حبا في الخيمة الحمراء ويتغنّى بها في شعره واصفا ومادحا فيقول³⁶:

اتوحشت أولاد نايل ذا الخطرة الله لا تراس نغدانوا ياه

نسري عل لفجار وانشق البكره نتوكل على خالقي عظيم الجاه

البر اللي فيه تطياب العشرة توحشنا ذوك المراسم يا حسراه

محلاها قعدات في البيت الحمرا ذيك القعدة تزيد للخاطر تنزاه

فلجه مرقومين رقبه من ظهره والكانون رواق من قبله غطاه

وطرايق فوق لعمد زينة نظرة وركيزة بيها القنطاس سمكناه

مشدود بأوتاد زبوج وسدره فيها خالفتين لمن ضيفو جاه

هذه الأبيات هي مجرد مقدمة لقصيدة تحوي أكثر من ثمانين بيتا. يعتز فيها الشاعر ويفتخر بكل ما هو بدوي أصيل، ويصور بدّة حياة الريف بمفردات بدوية أصيلة افتقدناها في لغتنا وحياتنا اليومية.

وفي ختام هذه الورقة البحثية خلصنا إلى مجموعة من النقاط نوجز ذكرها فيما يلي:

- تتحول الفضاءات العمومية إلى فضاءات ثقافية، يتم فيها تداول الحكايات الألغاز والأشعار وحتى اللهجة والأغاني؛ ولهذا فلها – الفضاءات الثقافية – حظوة خاصة عند أهل القرى، فهي تثرى قنوات التواصل بين شرائح المجتمع في الآونة ذاتها، كما تقوي أواصر القرب والتوارث بين جيل سابق وجيل لاحق.
- تتجلى الرابطة في المكان فحسب، كما تتجلى علاقة الإنسان بالمكان التي تصل إلى درجة الانصهار والامتزاج؛ إذ يُكَيِّف الإنسان نفسه ويصقل طباعه لتتماشى مع ذلك المكان ويكون العكس صحيحا أيضا "فالإنسان يتماهى مع المكان فيصبح بالنسبة إليه فضاء حيويا وجوديا، يسعى إلى قبولته وتأهيله وفق رؤيته للعالم والقيم، وتلك الرؤية في العادة هي نتاج تطور تاريخي شاق، أفرزته ذهنيات معقدة تم شحذها عبر التقلبات التاريخية والاضطرابات البنيوية في النظام العام للمجتمع
- تشتغل الفضاءات الثقافية مثل الحقول مغناطسية تتجاذب وتتنافر بحسب موقعها وبحسب قوة العوامل المعتملة في داخلها.
- طبيعة الفضاء الذي تتم فيه الوساطة الثقافية هي التي تحدد طبيعة الوساطة ذاتها، بمعنى أن الفضاء هو من العوامل الحاسمة التي تتحكم فيما يتداول من أشكال تعبيرية أو مضامين ثقافية.

الإحالات والهوامش:

- ¹ أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، مادة (ف ض ا) مج 11 ، ط4، دار صادر، لبنان ، 2005، ص194-195
- ² حسن نجمي، شعرية الفضاء -المتخيل والهوية في الرواية العربية- ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، 2000، ص32-33.
- ³ ابن منظور، لسان العرب، ج3، مادة (ثقف).
- ⁴ ينظر : مجدي وهبة ، كامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب ، مكتبة لبنان ، ط2 ، بيروت ص 1994
- ⁵ ينظر : سليم جيهان ، عبد الله الدائم و آخرون ، الثقافة العربية ، أسئلة التطور و المستقبل ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، بيروت ، 2003 ، ص 279 .
- ⁶ سامية حسن الساعات ، الثقافة و الشخصية ، بحث في علم الاجتماع الثقافي ، دار النهضة العربية ، بيروت 1983 ، ص 35
- ⁷ المرجع نفسه، ص35.
- ⁸ Bernard Lamitez. La médiation culturelle. L'Harmattan. Paris. 1999. 1°ED. P106.
- ⁹ Julia Kristiva ,Le texte du roman ,approche sémiotique du structure discursive transformationnelle, mouton,Grande-Bretagne, 3eme édition,1979,p182
- ¹⁰ جماعة من الباحثين، جماليات المكان، عيون المقالات، المغرب ، ط2، 1988، ص64.
- ¹¹ أوريدة عبود، المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية، دراسة بنيوية لنفوس ثائرة، دار الأمل، الجزائر، دط، 2009، ص42.
- ¹² المرجع نفسه، ص42.
- ¹³ حميد بوحبيب، مدخل إلى الأدب الشعبي – مقارنة أنثروبولوجية- ط1، دار الحكمة، الجزائر، 2009، ص7.
- ¹⁴ Bernard Lamitez. La médiation culturelle. L'Harmattan.. P106.
- ¹⁵ محمد الجوهري، حسن الخولي، فاتن علي احمد وآخرون، التراث الشعبي في عالم متغير- دراسات في اعادة انتاج التراث –أعين للدراسات، القاهرة، ط1، 2007، ص11
- ¹⁶ سعيد يقطين، الكلام والخبر –مقدمة للسرد العربي- المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، ط1، 1997، ص47
- ¹⁷ محمد راتب الحلاق، نحن والآخر- دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر- منشورات اتحاد كتاب العرب، دط، 1997، ص56
- ¹⁸ ويكيبيديا الموسوعة الحرة ، <https://ar.wikipedia.org/wiki/> ، بتاريخ:2015/9/5، سا:18:27
- ¹⁹ محمود رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة ، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، دط، 2002، ص21.
- ²⁰ سعيد يقطين، الرواية والتراث السرد- من اجل وعي جديد بالتراث- رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2006، ص226
- ²¹ فوزي العنتيل، الفلكلور ماهو؟- دراسات في التراث الشعبي- دار المعارف، مصر، دط، 1965، ص23.
- ²² نبيلة ابراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دط، دار النهضة، مصر، دت، ص 4.
- ²³ الانثروبولوجيا، موسوعة ويكيبيديا الحرة ، <https://ar.wikipedia.org/wiki/> ، بتاريخ 2015/10/12، سا: 14:15

²⁴ Bernard Lamitez. La médiation culturelle .P103

²⁵ Pierre Bourdieu. Langage et Pouvoir Symbolique ed. Fayard. 2°ed. Paris 2001. P 239-294

26 حميد بوحبيب، مدخل إلى الأدب الشعبي، ص25.

27 ينظر: المرجع نفسه، ص19-26.

28 حميد بوحبيب، المرجع السابق، ص25.

29 ينظر: المرجع نفسه، ص 07.

30 ينظر : حميد بوحبيب، مدخل إلى الأدب الشعبي ، ص21.

* الحكواتي : هو السارد الذي يسرد الحكاية في مجلس القرية.

31 يوسف نسيب، واحة بوسعادة، مطبعة زرياب (المؤسسة الجزائرية للطباعة)، الجزائر دط، 2013 ص80.

32 ينظر : حميد بوحبيب، مدخل إلى الأدب الشعبي، ص46.

33 المرجع السابق، ص7.

34 المرجع نفسه، ص 27.

* تنويه : تفرض طبيعة الألغاز الشعبية طقوسا معينة تتمثل في اشتراط أن تكون الأحجية في جنح الليل لا في وضح النهار، وفي هذا يقال مثل معروف " اللي يحاجي في الليل يأكل بيضة لوعيل و اللي يحاجي في النهار يأكل فضلة الحمار"، أي أن الذي يطلب سماع الأحاجي في الليل ينال كل طيب، و الذي يطلب سماعها في النهار ينال الأذى والقذارة. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا المثل يشمل بعض أشكال التعبير الأخرى كالحكايات و السير؛ لأن المحاجبة في اللهجة العامية للمنطقة تطلق أيضا = على الحكاية ويحمل هذا المثل قيمة اجتماعية حضارية إذ يرفض التجمع للتسلية في النهار؛ لأن هذا الوقت مخصص للعمل الجاد وكسب الرزق والتعمير والعلم لا للفراغ ويجيز ذلك في الليل؛ لأن هذا وقت للسمر ولم الشمل. ومن الطقوس أيضا أن الجدة لا تعطي الإجابة على اللغز إلا إذا قال لفظة تعتبر إعلانا عن عجزهم في إيجاد الحل واستسلامهم، وهذه الكلمة متفق عليها وهي " داب" - و لهذا الشرط خلفية سيميائية حيث يستوي تفكير الفرد في لحظات عجزه بتفكير الحمار - . لترد الجدة بعد ذلك مباشرة بأسلوب مضحك ساخر قائلا: " يصحك في دار ضيقة" و بعدها تقول لهم الحل. إذن فالألغاز الشعبية فضلا عن وظيفتها الترفيهية فهي مجال تعليمي يقوي وينمي الذكاء في جو تنافسي عائلي جميل للغاية.

35 حميد بوحبيب، مدخل إلى الأدب الشعبي، ص26.

36 عبد الكريم قذيفة، أشعار حضنية (أنطولوجيا الشعر الملحون بمنطقة الحضنة الشعراء الحاليون)، ط2، منشورات أرستيتيك، الجزائر، 2007

، ص129.